﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ۝٣١﴾ [الكهف: 30 - 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ لبيانِ التَّقابُلِ بين الأضدادِ

بعد الإخبارِ عمّا أعدَّ اللّه للكافرين في النّار من عذابٍ؛ انتقل الذِّكرُ الحكيمُ للإخبار عمّا أعدَّ للمؤمنين من نعيمٍ في الجنَّة، وهذا منَ التَّقابُلِ التَّتميميِّ لبيانِ حالَي النّاس ممَّن شاء الإيمانَ، وممَّن شاء الكفرَ، فهو انتقالٌ من بيانِ حالِ أهل الشَّقاوةِ إلى بيانِ حال أهلِ السَّعادة، "فلمّا ذَكَر مكانَ أهلِ الكفر وهو النّارُ؛ ذَكَر مكانَ أهلِ الإيمان؛ وهي جنّاتُ عدنٍ، ولمّا ذَكَر هناك ما يُغاثون به وهو الماءُ كالمُهل؛ ذَكَر هنا ما خُصَّ به أهلُ الجنّة من كون الأنهار تجري من تحتهم، ثمّ ذَكَر ما أنعم عليهم منَ التّحليةِ واللّباسِ اللّذين هما زينةٌ ظاهرةٌ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَاوِرَ﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (سور)؛ والسِّوار: حُليٌّ من ذهب أو فضةٍ يُحيط بموضعٍ منَ الذِّراع[2]، سَوَّرْتُ الجارية، وجاريةٌ مُسَوَّرَةٌ ومخَلْخَلَة، قال: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزُّخرف: 53]، وقولُه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: 21]، وقولُه تعالى في هذه الآية: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾[3]، أيْ: مُحلّاةٌ بأساورِ الذَّهبِ والفِضَّة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (سور).

2) ﴿خُضۡرًا﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (خضر)؛ قال تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةٗ﴾ [الحَجّ: 63]، ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٖ﴾، فَخُضْرٌ جمعُ أخضر، والأخضرُ: لونٌ معروفٌ مُريحٌ للنَّظر، ولذا فإنّ عمومَ لون الشّجر أخضر، وقيل: سوادُ العراق للموضع الذي تكثرُ فيه الخُضْرةُ[1]، واللّون الأَخضرُ بين البياض والسّواد، وربّما سمَّوا الأَسودَ أَخضرَ، ويُسمَّى اللّيلُ أَخضرَ لسواده، وقولُه: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرّحمن: 64]: خضراوان؛ لأَنّهما تضربان إلى السّواد من شدَّة الرّيّ، وقولُه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾ [الأنعام: 99]؛ قال الأَخفش: يريد الأَخضر؛ أَيْ: ورَقًا أَخضر، وكلُّ شيءٍ ناعمٍ فهو خَضِر، يقال: أَخذ الشّيءَ خِضْرًا مِضْرًا؛ أَي: غضًّا طَريًّا، وخُذْهُ خِضْرًا مِضْرًا؛ أَيْ: هنيئًا مريئًا[2]، ويمكنُ أن يجمع المعنيَيْن فيكونُ فوق لونه المقبولِ للنَّظر ناعمَ الملمس غضًّا طريًّا، ويؤكِّدُ ذلك قولُه: ﴿مِّن سُندُسٖ﴾؛ وهو الثّوبُ النّاعمُ.

3) ﴿سُندُسٖ﴾: السُّندس: نمارقُ منَ الحَرير[3]، وقيل: صنفٌ منَ الثّياب؛ وهو رقيقُ الدّيباج[4]، وقولُه: ﴿مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾.

4) ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾: الإِسْتَبْرَقُ: قيل: فارسيٌّ مُعرَّبٌ، وتصغيرُه: أُبَيْرِقٌ[5]، قال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ [الإنسان: 21] هو الدّيباج الصَّفيقُ الحسَنُ، وهو ما غلُظ منَ الحرير والإِبْرَيْسَم[6]؛ وهو الدّيباجُ الغليظُ المنسوجُ بخيوط الذّهب، يُلبس فوق الثّيابِ المُباشرةِ للجلد[7].

5) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: جَذْرُ الكلمة هو (تكأ)؛ قالَ الخطابيّ: كلّ مُعْتَمِدٍ على شَيْءٍ مُتَمَكِنٍ مِنْهُ فَهو مُتّكِئٌ[8]، والمُتَّكَأ: المكانُ الذي يُتّكأُ عليه، والمِخَدَّةُ: المُتّكأ عليها، قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ [طه: 18]، وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطّور: 20]، وقال: ﴿عَلَىٰ

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (سور).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (خضر).
(3) الكفويّ، الكلّيّات: (سندس).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سندس).
(5) أبو بكر الرّازيّ، مختار الصّحاح: (استبرق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (استبرق).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 313.
(8) عياض، مشارق الأنوار: (تكأ).

﴿ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: 56]، وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: 16][1].

6) ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (أرك)؛ والأريكةُ: حِجْلة حَجَلة على سرير، وجمعُها: أرائك[2]، والحِجْلة الحَجَلة: قُبَّةٌ من ثيابٍ تكونُ في البيت، تجلسُ فيها المرأةُ أو تنامُ فيها، ولذلك يُقال للنّساء: ربّات الحِجال، فإذا وُضع فيها سريرٌ للاتّكاء أوِ الاضطجاع؛ فهي أريكةٌ، ويجلسُ فيها الرَّجُل وينامُ مع المرأة، وذلك من شعار أهلِ التَّرَف[3]، وسُمّيتِ الأريكةُ بذلك؛ إمّا لكونِها في الأرض مُتَّخذةً من أراكٍ، وهو شجرةٌ معروفةٌ، أو لكونِها مكانًا للإقامة[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهـلُ الجنّةِ في نعيمٍ مقيمٍ لا يَتحوّلون عنه

اشتملتِ الآيةُ الكريمةُ على ألوانٍ متعدّدةٍ منَ التّكريم والثّوابِ لمنِ اختار الإيمانَ طريقًا لهم موصلةً إلى الجنّة، فقد بيّن سبحانه في هذه القطعةِ القرآنيّةِ حُسنَ عاقبتِهم، فاللّه تعالى ضامنٌ لهم أجرَهم وحقَّهم، بما أعدّه لهم من ألوان النّعيمِ في الآخرة؛ في جنّات الإقامةِ، فلا رحيلَ بعدها ولا تحوُّلَ عنها، فكما أنّهم ثبتوا على الاستقامةِ والعملِ الصّالح فإنّهم سيُجزَون بجناتٍ يُقيمون فيها إقامةً دائمةً، تجري من تحت مساكنِهم الأنهارُ، ويُحلّون في تلك الجنّاتِ بأساورَ من ذهب على سبيل التّزيُّن والتّكريم، هذا فضلًا عن جميلِ الثّياب؛ إذ يتزيّنون فيها بأساورَ من ذهبٍ، ويلبسون فيها ثيابًا خُضرًا من رقيقِ الحرير ومن غليظِه، أمّا جلوسُهم فإنّهم مُتّكئون في الجنّاتِ على الأرائك شأنَ المتنعّمين المتَرفِّهين؛ وذلك

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (تكأ).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (أرك).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (أرك).

هو ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك الذي وعدَهم الله به وهو الجنّةُ ونعيمُها، ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾؛ أي: حَسُنت مجالسُهم استقرارًا ومسكنًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الجملةِ عنِ السّابق:

وضـــفُ عـــذابِ أهلِ النّار يُحرّكُ الأذهانَ للسّؤالِ عن نعيمِ الأبرارِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا مُراعًى فيه حالُ السّامعين منَ المؤمنين، فإنّهم حين يسمعون ما أُعدّ للمشركين تَوجَلُ قلوبُهم خوفًا، وتتَشوّفُ نفوسُهم طمعًا إلى معرفة ما أُعدَّ للّذين آمنوا، وجريًا على عادة القرآنِ في تعقيب الوعيد بالوعد، والتّرهيب بالتّرغيب[2]، فالفَصْلُ بين الجُملتيْن لشِبْه كمالِ الاتّصال بينهما؛ والجملةُ الثّانيةُ بمنزلة جوابٍ عن سؤالٍ افتراضيٍّ يُفهمُ منَ الجملة الأولى، فإنْ كان هذا عذابَ الذين ظلموا فما بالُ المؤمنين وكيف سيكونُ حالُهم يومَ القيامة؟ فالجملةُ تعليلٌ للحثّ على الإيمان المفهومِ منَ التّخييرِ المُتقدّمِ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾"[3].

بلاغةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تـحـقّـقُ الـوعـدِ والوعيدِ

افتُتحت جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بحرف التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك لتحقيق مضمونِها، وتكرَّرُ حرفِ (إنَّ) في الجملة المُخبَر بها عنِ المبتدأ الواقعِ في الجملةِ الأولى لمزيد العنايةِ والتّحقيقِ[4]؛ فهي توكيدٌ لتحقيقِ وعْدِ الله للمؤمنين ووعيدِه على الكافرين.

(1) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 511 - 512.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.

بَلاغةُ اختلافِ التّقسيمِ في التّعبيرِ عنِ الظّالمين والمؤمنين:

وعيدُ الكافرين مشوبٌ بالتّرغيب في التّوبةِ، ووعدُ المؤمنين تثبيتٌ للطُّمأنينةِ

في إخبارِ الله عن شأنِ الظالمين قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، ففيه منَ التّهديد والوعيد ما لا يخفَى، والفعلُ الماضي يدلُّ على قِدَم ما أودعَ الله في النّار من أسباب العذابِ، ولإفادةِ أنَّ هذا الذي أُعِدَّ لهم بإمكان الكافرِ أن ينأى بنفسِه عنه، فيتركَ أسبابَه ويُقبلَ على التَّوبة، بينما في شأنِ المؤمنين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فعبّرَ بالاسم ليدلّ على الرّسوخ والثّباتِ لِما سيأتي وصفُهُ منَ النّعيم؛ فلم يَقُلْ: (إنّا أعتدنا للمؤمنين) كما قال في شأن الظّالمين، وذلك لبيانِ أنَّهم راسخون في الجنَّة، وأنَّ الله تعالى لا يُضيعُ أجرَهم بما قدَّموه منَ الأعمالِ الصّالحةِ؛ ففيه توريثُ الطُّمأنينةِ والسَّكينة؛ فإنَّ شأنَ العباد في الدُّنيا كثرةُ السُّؤالِ عنِ المَسَرّات لجلبِ الطُّمأنينة؛ فإذا أُجيبوا اطمأنّوا.

نُكتةُ حذفِ مُتعلّقِ فعلِ الإيمان:

إذا أُطلقَ الإيمانُ يُرادُ منه الإيمانُ بالله تعالى

لم يُذكرْ متعلّقُ الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إنَّ الذين آمنوا بالله)، ونُكتةُ ذلك أنّه لمّا سبقَ أن ذكرَ قولَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، ثمّ قال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾، فإنّه استغنَى هنا عن ذِكْر متعلِّقِ الايمان؛ لأنّه قد سَبق وعُلمَ ذلك من ذِكْر المؤمنين بالله، وليكونَ إطلاقُ الإيمان مُنصرفًا في الأذهان إلى شيءٍ واحدٍ وهو الإيمانُ الحقُّ الذي إذا أُطلقَ لا يكونُ إلا لله تعالى.

بلاغةُ تركيبِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ بينهما تلازمٌ اقترانيٌّ يُنتجُ معيارًا للقَبولِ

جرى هذا التّعبيرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مجرَى التّركيبِ الاصطلاحيِّ، فهو إطلاقٌ على طائفةٍ منَ النّاس همُ المؤمنون أوِ المُصلِحون، وقد ورد هذا التّركيبُ في القرآن كثيرًا، فارتبط مدحُ الايمان بالعمل الصّالحِ، فهما لا يفترقان، فمَنِ ادّعى

الإيمانَ عليه أن يُصدّقَ ادّعاءَه بالعمل الصّالح، وتكمُنُ بلاغتُه في قرْنِ الإيمان بالعمل الصّالح اقترانًا تلازُميًّا بحيث يُنتجان مفهومًا واحدًا يشملُ الإيمانَ والعملَ الصّالح معًا.

بَلاغةُ تَكرارِ (إنَّ):

تأكيدُ قبولِ الأعمالِ ببيانِ عدلِ الله تعالى وفضْلِه

موقعُ (إنَّ) الثّانيةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ بليغ؛ لأنّ لجملتِها استقلالًا بمضمونها من حيث هي مفيدةٌ حُكمًا يَعُمُّ ما وقعت خبرًا عنه، فتكونُ أجورُ مَن أحسنوا الأعمالَ في هذه الدّنيا مضمونةً غيرَ مُضيَّعةٍ، فذلك حكمٌ جديرٌ بالتّأكيد لتحقيق حصولِه لمَن استحقَّه[1]، فأفادت (إنَّ) الثّانيةُ تأكيدًا لقَبولِ أعمالِ المؤمنين والجزاءِ عليها[2]، وذلك بذِكْر عدْلِ الله تعالى وفضْلِه على العبادِ، وهذا ما يورِّثُ الطُّمأنينةَ والسَّكينةَ في القلوبِ.

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ بين الخبريَّةِ والاعتراضِ:

التّذكيرُ بجزاءِ اللهِ للمؤمنين ربطٌ للقلوبِ وتسكينٌ للنُّفوس

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ إمّا أن يكونَ خبرًا عن حُكمٍ يعمُّ جزاءَ كلِّ مَن أحسن عملًا وضمانَ أجرِه، والمبتدأُ جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: (مَن أحسن عملًا منهم).

وإمّا أنْ يكونَ اعتراضًا مُؤكِّدًا للمعنَى، مُذكّرًا بأفضال الله، مُنبّهًا على حُسن جزائِه بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾[3].

بَلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ إليه ضميرَ العظَمة:

أتى المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ضميرَ العظَمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 514.

(نا) لتعظيم شأنِ مَن أحسن عملًا، ولبيان عظيم أجورِهم، وأنّه سبحانه لمّا تكفّل بثبات أجورِهم وعدمِ ضياعها فقد ضَمِنَ لهم ذلك ليأتيَهم الأجرُ حتمًا، فهو جزاءٌ مضمونٌ لا يُضاع قطعًا.

جـزاءُ المؤمنين مضمونٌ بضمانِ الله تعالى لهم

بَلاغةُ التَّعريض في ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾:

جاء تعبيرُ النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ بالنّفي دون الإثبات؛ دون أن يقول: (إنا نجزي أجر مَن أحسن عملًا)، وفي ذلك تعريضٌ بالذين يعبدون من دون الله؛ فتضيعُ حقوقُ تلك العبادة مع آلهتهم التي عبدوها واستعانوا بها، فلا يَلقَون منهم إلّا الخذلانَ المبينَ، وهو تعريضٌ أيضًا بمَنْ يأكلون حقوقَ النّاس، ويُضيعون أجورَ أصحابِ الحقوق، فالله سبحانه لا يُضيعُ أجرَ مَنْ آمن وأحسنَ عملًا.

الـلـه سبحانه وحـدَه الـذي لا تَـضـيـعُ عـنـدَه أجورُ العاملين

بلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ الإضاعةِ:

حقيقةُ الإضاعة إتلافُ الشَّيء من مظنّةِ وجوده، وتُطلقُ مجازًا على انعدام الانتفاعِ بشيء موجود؛ فكأنّه قد ضاع وتلفَ، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، ويُطلقُ على منع التّمكين من شيءٍ والانتفاعِ به تشبيهًا للمَمنوع بالضّائع في اليأس منَ التّمكُّن منه كما في هذه الآية؛ فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ صرّح بالمُشبَّه به وحذفَ المُشبّهَ، فالله تعالى لا يمنعُ أجورَ المُحسنين؛ أيْ: إنّا لا نَحْرِمُ من أحسنَ عملًا أجرَ عملِه[1].

انـعـدامُ الانتفاعِ بـالـشَّيء كإضاعتِه وتلَفِهِ

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

بعد أن قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كان مقتضَى الظّاهر أن يقول (أجرهم) في قوله تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لكنَّه عَدَلَ عن مقتضى الظّاهر إلى مُقتَضى الحال؛

بـيـانُ عـلّـةِ استحقاقِ الأجرِ الحَسَنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.

وذلك لبيان سببِ ما استحقّوه منَ الأجر؛ وهو حُسنُ عملِهم، وتأكيدُ حُسنِ أعمالهم، وجدارةِ ما استحقّوه منَ الأجر والثّوابِ.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصول ﴿مَنْ﴾:

إفادةُ عمومِ المُحسنين والتّعريضُ بالمُسيئين

أفاد التّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ التّعميمَ، ولذلك لم يَقُلْ: (أجرَ الذي أحسن عملًا)؛ فقد يُفهمُ منها نوعٌ منَ المحسنين، كما أنّها تتضمّن معنَى التّعريض بمَنْ لم يُحسنْ عملَه، فمعنى التّعميمِ أنّ هذه الخصلةَ والمُكافأةَ منَ اللّه ليست خاصّة بأولئك الذين قال فيهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ وإنّما هي عامّةٌ بكلِّ مَن سار على نهجِهم واتّبعَ سبيلَهم، وأُفرد الاسمُ الموصولُ ﴿مَنْ﴾ دون (الذين) لفائدةِ أنّ كلَّ إنسان يستطيعُ أن يكون بمفردِه وشخصِه مُحسنًا في عمله.

نُكتةُ العُدولِ عن صفةِ الصّلاح إلى صفةِ الإحسان:

الأعمالُ الصّالحةُ المَبنيَّةُ على الإيمان هي الإحسانُ

لمّا قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فُهِم أنّهم سينالون الأجرَ والثّواب على أعمالهم الصّالحة؛ فكان مُقتضى الظّاهر أن يقول: (إنّا لا نضيع أجر مَن صلُح عملًا)؛ لكنّه عدل إلى صفة الإحسانِ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وذلك لأنّ الإحسانَ هو غايةُ الأعمالِ الصّالحةِ المبنيَّةِ على الإيمان، فأفاد اختيارُ صفةِ الإحسان بيانَ أنَّ العمل الصّالحَ المَبْنيَّ على الإيمان هو الإحسان، وفيه مزيدُ ثناءٍ على المؤمنين، لأنّهم مُحسِنون فيما يُقدِّمونه من أعمال.

بَلاغةُ الإطنابِ:

المُداومةُ على الأعمالِ الصّالحةِ شرطُ الختامِ

أطنبَ النَّظمُ الكريمُ في وصفِ المُحسنين بجملةِ: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأنّ مقتضَى الإيجازِ أن يقول: (أجر المحسنين)، لكنَّ النَّظْمَ آثَرَ الإطنابَ؛ فأتى بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنْ﴾ لإشرابِه معنَى الشَّرطِ

الضِّمنيّ؛ كأنَّه قال: (إنّا لا نضيع أجرهم إنْ أحسنوا عملًا)، وصلةُ الموصولِ ﴿أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ لتعليلِ عدمِ إضاعة أجرِهم؛ فهذا الشّرطُ والتَّعليلُ يُشعر بضرورةِ عدمِ الاسترخاءِ للأعمال الصّالحةِ، فإنَّ المداومةَ عليها شرطُ الختامِ.

فائدةُ الاستئنافِ البيانيّ:

تفصيلُ الأجرِ المُجمَلِ وعظيمِ التّشويقِ للمؤمنين

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ "الجملةَ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًا؛ لأنَّ ما أُجمِلَ من عدم إضاعةِ أجرِهم يستشرفُ بالسّامعِ إلى ترقُّب ما يُبين هذا الأجرَ"[1]، فهي بيانٌ للأجرِ المُبهَم[2] في الجملةِ السّابقةِ بناءً على ما يترقَّبه السّامعُ منَ المعرفةِ.

فلمّا أثبت اللّه تعالى الأجرَ المُبهمَ إجمالًا بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ أردفه بالتَّفصيل من وجوه: أوّلُها بيانُ صفة مكانِهم؛ وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وثانيها: بيانُ صفةِ لباسِهم وتَحلّيهم فقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾، ثمّ بيّن ثالثًا صفةَ جلوسِهم فقال في صفتِها: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾.

نُكتةُ الإشارةِ بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

سُموُّ مكانةِ المؤمنين عندَ الله وعظيمُ منزلتِهم

أُتي باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ لبيانِ بُعدِ منزلةِ المُشار إليه وارتفاعِ مكانتِه، "وافتتاحُ الجملة باسم الإشارةِ لِما فيه منَ التّنبيه على أنَّ المشارَ إليهم جديرون لِما بعدَ اسمِ الإشارة لأجلِ الأوصافِ المذكورةِ قبلَ اسمِ الإشارةِ؛ وهي كونُهم آمنوا وعملوا الصّالحات"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ ﴿لَهُمْ﴾ على المُسنَدِ إليه:

قُدِّم المُسندُ ﴿لَهُمْ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، والجملةُ كلُّها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرٌ لاسم الإشارةِ؛ وذلك لإكرامِ المؤمنين بتخصيصِهم بتلك الجنّاتِ، أي إنَّه قصرَ المُسنَدَ إليه - وهي تلك الجناتُ - على المُسنَد، ليختصّوا بها، وتكونَ لهم خاصّةً كاستحقاقٍ يُميّزهم لحُسن صنيعِهم في الحياة الدّنيا.

أكرمَ الله تعالى المؤمنين بجنّاتٍ لا يُخرجون منها

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾:

أضيفتْ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى لفظُ ﴿عَدْنٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ والمعنى: جزاؤهم جنّاتُ عدنٍ، ومعنى العَدَن: الإقامةُ، ومنه المَعْدِن؛ لأنّ حجرَه مُقيمٌ فيه ثابتٌ[1]، فيكونُ المعنى؛ أولئك لهم جنّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، بمعنى الخلودِ، كما يقال: هذه دارُ إقامةٍ، وهو وصفٌ للجنّاتِ، وهو الأنسبُ بحال الخلودِ لأهلِها، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لموضعٍ مُعيَّنٍ منَ الجنّة وهو وسطُها وأشرفُ أماكنِها[2]، ويجوزُ أن يكونَ هذا الاسمُ للجنّة؛ لأنّ مَن يدخلُها فإنّه مُقيمٌ فيها، لا يرغبُ بالتّحوُّل عنها لِما فيها منَ النّعيم المقيمِ.

وصفُ الإقامةِ الدّائمةِ للجنّاتِ مُناسبٌ لحالِ خلودِ أصحابِها

بَلاغةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿تَجْرِى﴾:

تدلُّ صيغةُ المضارع في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على التّجدّدِ والاستمرارِ في الجريان، فماءُ أنهارها لا ينضبُ ولا يأسُنُ، فهو دائمُ التّدفّق والجريانِ، كما أنَّ فيها تصويرًا لهذه الأنهارِ حالَ جريانِها.

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ للابتداءِ، حيث جُعلتِ الأنهارُ تجري من تحتِهم؛ فيكونُ منبعُ هذه الأنهار من

الأنهارُ تجري كأنّها تنبعُ من تحت أهلِ الجنّةِ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 514.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

تحتِهم، كأنَّه قال: (تنبعُ فتجري من تحتهم)، وفيها تصويرٌ بليغٌ لجمالِ هذه الأنهارِ التي تنبعُ من تحت أهلِها، أو أن يكونَ الجريانُ مُشبَّهًا بالنَّبعِ، فيكونَ المعنَى: (تجري من تحتهم بسرعةٍ ونقاءٍ كأنَّها تنبعُ من تحتهم).

بلاغةُ التَّعريضِ بإضافةِ الظَّرفِ إلى ضمير أهلِ الجنّة:

إغاظةُ المُشركين بتقرير ما أُعِدَّ لأهلِ الجنَّة منَ الخيراتِ

قولُه تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ بمنزلة (مِنْ تَحْتِها)؛ لأنّ تحتَ جناتِهم هو تحتٌ لهم، ووجْهُ إيثارِ إضافةِ (تحت) إلى (أصحاب الجنّة) دون (الجنّات) زيادةُ تقريرِ المعنَى الذي أفادتْه اللّامُ الشّبيهةُ بلامِ الملك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾؛ أيْ إنّ ذلك كنايةٌ عن تمليك تلك الجنّاتِ لهم، "فاجتمع في هذا الخبر عدّةُ مُقرِّراتٍ لمضمونِه، وهي: التّأكيدُ مرّتيْن، وذِكْرُ اسمِ الإشارة، ولامُ الملك، وجرُّ اسمِ الجهةِ بـ ﴿مِن﴾، وإضافةُ اسمِ الجهة إلى ضميرِهم، والمقصودُ من ذلك: التَّعريضُ بإغاظةِ المشركين لتتقرَّرَ بشارةُ المؤمنين أتَمَّ تقرُّرٍ"[1].

غرضُ جمعِ ﴿جَنَّٰتُ﴾:

الجنّاتُ أنواعٌ كثيرةٌ ودَرجاتُها مُتباينةٌ

جاءتِ الجنّاتُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للتَّكثيرِ، ولبيانِ كثرةِ أنواعِ الجنّاتِ التي دخلَها أهلُ الإيمانِ، ولبيانِ عظيمِ ما أصابه المؤمنون منَ الخيرِ والفضلِ والجزاءِ، وقد أجمَلَ البيانُ القرآنيُّ تفصيلَ أنواعِ تلك الجنّاتِ، دون أن يذكرَها كما كان بالنّسبةِ للأنهارِ في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد ﷺ: 15] لكثرتِها وتبايُنِ درجاتِها، ولتشويقِ المؤمنين لِما فيها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.

نُكتةُ تقديمِ ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

مِهمازُ التّرغيبِ ومَوطنُ التّشويقِ أن تتفجَّرَ الأنهارُ من تحت أهلِها

في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ذكرَ أنَّ من صفاتِ تلك الجنّاتِ أنَّ الأنهارَ تجري من تحت ساكنيها؛ وذلك لأنَّ أفضلَ المساكنِ في الدّنيا البساتينُ التي تجري فيها الأنهارُ[1]، فقدّمَ ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾؛ لأنّهم قد خُصّوا بتفجيرِ تلك الأنهارِ بمجرّد كينونَتِهم فيها، وهو موطنُ التّرغيبِ والتّشويقِ.

نُكتةُ بناء الفعل المضارع ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعولِ:

التّحليةُ كالأُسمةِ يَستحقُّها أهلُ الجنَّة بدخولِها

جملةُ ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ في موضع الصِّفة لـ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، والتّحليةُ: التّزيينُ، والحليةُ: الزّينةُ، وأُسندَ الفعلُ إلى المفعول؛ لأنّهم يَجدون أنفسَهم مُحَلّين بتكوينِ الله تعالى[2]، وفي المضارع معنَى التّجدّدِ، فتتجدّدُ لهم التّحليةُ باستمرار، وهذا من دواعي التَّرغيبِ في الجنَّة، إذ إنَّ التَّحليةَ بأساورَ من ذهب في الدنيا من شأنِها الثّباتُ لصعوبة التَّجديدِ والتّبديلِ، أمّا الجنَّةُ فقد مُدحت بوجودِ صفةِ تبديلِ الحِلية لأهلِها، وهي صفةٌ عزيزةٌ ونادرةٌ في الدُّنيا.

نُكتةُ ذِكرِ قيدِ ﴿فِيهَا﴾:

التّحليةُ في الجنَّة لا كالتَّحليةِ خارجَها ثمّ الذّهابِ إليها

أفاد حرفُ الجرِّ (في) الظّرفيّةَ الحقيقيَّةَ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾؛ ومعنَى ذلك أنّ التّحليةَ تكونُ وهم مُستقرّون فيها، فهي لهم كالوعاء، فمَنْ دخلَ هذه الجنانَ استحقّ التّحليةَ، وما أجملَ أن يُحلَّى الإنسانُ في جنَّةٍ وهو مستقرٌّ فيها، لا أن يُحلَّى ثمّ يذهبَ إليها.

معنَى حرفِ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾:

للجنَّةِ ذهبٌ يُحلَّى به أهلُ الجنّةِ

و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ مزيدةٌ للتّأكيد على رأي الأخفشِ[3]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 171.

ويجوزُ أن تكونَ للابتداء؛ وهو ما ذهب إليه الزّمخشريُّ[1]، وهو مُتعيِّنٌ عند الذين يمنعون زيادتَها في الإثباتِ[2]، فبيّن بأيّ شيء يُحلّون؛ إنّها أساورُ من ذَهَبِ تلكَ الجِنان، وكأنّه ذهبٌ ناشئٌ فيها.

فائدةُ تنكيرِ ﴿أَسَاوِرَ﴾ وجمعِها:

تَشويقُ السّامعِ لمعرفةِ جمالِها وحُسنِها

تنكيرُ ﴿أَسَاوِرَ﴾ لإبهام أمرِها في الحُسن[3]، فتكونُ في موضع تشويقٍ للسّامعِ وترغيبٍ في تحصيلِها، وتعجيبٍ لِما في تلك الجنّاتِ من نعيمٍ مقيمٍ لِمَن يدخلُها منَ المؤمنين، والأساورُ: جمعُ سِوار على غيرِ قياسٍ، وقيل: أصلُهُ جمعُ (أسورة) الذي هو جمعُ (سِوار)، فصيغةُ جَمع الجمعِ ﴿أَسَاوِرَ﴾ للإشارة إلى اختلاف أشكالِ ما يُحلَّون به من تلك الأساور، فإنَّ الحِليَةَ تكونُ مُرصَّعةً بأصناف اليواقيتِ[4].

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾؛ للتّبْيينِ[5]، ويحتملُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ للتّبعيضِ لا للتّبْيين[6].

نُكتةُ الاكتفاءِ بذِكْرِ الذَّهبِ:

مُناسبةُ الذَّهبِ لـلإستبرقِ في التَّرصيعِ

ذُكِرَ الذَّهبُ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ اكتفاءً؛ أيْ: من ذهب وفضّة؛ كما اكتُفي في آية سورة الإنسان بذِكْر الفضّة عن ذِكْر الذّهب بقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21]، فتكونُ كلُّ آية قد ذَكَرتْ جانبًا منَ التّحلية بالأساور، ولكلٍّ منَ المعدنَين جمالُه الخاصُّ[7]، واكتفى بذِكْر الذّهب تناسبًا مع ذِكْر الإستبرقِ، وهو الدّيباجُ الخَشِنُ الذي يُرصَّعُ بالذّهب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 171.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾:

إمتاعُ النَّفسِ بتجديد اللِّباس ودفعِ السَّأمِ

دلَّ الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ على الاستمرارِ التّجدّديِّ، فاللُّبس يتجدّدُ عندهم باستمرارٍ من أنواع اللّباس منَ السُّندس والإستبرق، ولا يُعلمُ سرُّ التّجدّدِ مع الزّمن وسرعةِ ذلك التّجدّدِ؛ وفائدتُه إمتاعُ النّفس بأجملِ النّظرِ وأبهى الحُللِ، دون سأمٍ منها أوِ اعتيادٍ عليها.

نُكتةُ إسنادِ فعلِ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ إلى الفاعل:

لباسُ أهلِ الجنّة يكونُ للسَّترِ والتّزيين

اللِّباسُ: سَترُ البدن بثوبٍ من قميص أو إزار أو رداءٍ، وغرضُ اللّباس هو السّترُ والتّجميل، وقد أُسندَ فِعْلُ اللّباس إليهم أنفسِهم؛ لأنّ اللّباسَ فيه من سَتر البدن ممّا يتخيّرون، فإكرامُهم أن يَلبَسوا هم بأنفسِهم ما يشاءون منَ الثّياب، بخلاف التّحليةِ بالأساور، فقد بُنيَتِ التّحليةُ للمفعول؛ لأنّ التّحليةَ للزّينة، فأُكرِموا بأنْ يُحلّوا من جهة فاعلٍ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ثِيَابًا﴾ وجمعِه:

ثيابُ أهلِ الجنّةِ كثيرةٌ لا تُحصَى

الثَّوبُ هو الشّقّةُ منَ النّسيج، والجمعُ والتّنكيرُ للتّكثير في قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا﴾؛ إذْ لا يُعدُّ ولا يُحصَى ما يكونُ لأهل الجنّة منها، وتَتَجَدّدُ على أجسادهم أنواعُ الثّياب؛ كي لا تسأمَ النّفوسُ منها، ولا تعتادُها العينُ أبدًا.

تَوجيهُ تخصيصِ ﴿خُضْرًا﴾ بالذِّكرِ:

الأخضرُ جمَعَ بين جمالِ اللّونِ وطراوةِ الملَمَسِ

اللّون الأخضرُ أعدلُ الألوان وأنفعُها عند البَصَر، ويأتي أيضًا بمعنى الطّريِّ ناعمِ الملمس، وكان من شعار الملوك[1]، قال النّابغةُ الذُّبيانيُّ:

يَصونونَ أجسادًا قديمًا نعيمُها *** بخالِصَةِ الأردانِ خُضْرِ المناكِبِ[2]

فوُصِفت الثّيابُ بـ(خضرٍ) للجمعِ بين صفة الطَّراوةِ والجِدّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

(2) الشَّنْتَمَرِيّ، أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين، ص: 34.

فائدةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾:

جاء حرفُ الجَرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ للبيان، والسُّندسُ: نوعٌ منَ الحرير الطّريِّ الذي يُلبسُ على البدن، ويكونُ تحت الإستبرق الذي يظهرُ خارج البدن.

براعةُ الجمعِ بين السُّندسِ والإستبرق:

طباقٌ بين متقابلَيْن يكتملُ بهما حُسنُ اللِّباس

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين السُّندس؛ وهو ما رَقّ منَ الدّيباج، وبين الإستبرق؛ وهو الغليظُ منه، جمعًا بين النّوعيْن[1]، وفيها دلالةُ الشُّمول؛ إذْ يَلبَسون ما يشاءون ممّا أنعمَ الله عليهم، فبينَ السّندسِ والإستبرقِ طباقٌ في النَّوعِ الواحدِ منَ الثّيابِ؛ إذْ جمعَ بين الرّقيق والغليظِ، وما يسترُ الجسمَ وهو السّندسُ، وما يوضع للزّينة فحسبُ وهو الإستبرقُ، وبهما يكونُ تمامُ اللِّباسِ.

نُكتةُ مجيءِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ اسمَ فاعلٍ:

بيانُ حالِ أهلِ الجنّة منَ النّعيمِ والتّرفِ

جاءت صيغةُ الاتِّكاءِ في قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعل للدّلالةِ على أنّ الفعلَ قد وقعَ وانقطعَ[2]، وليدلَّ على تأكيدِ ما سيحدثُ وهو نعيمُهم وترفُّهم بالرّاحةِ والاتّكاءِ على الأرائك، فإذا أُريدَ به معنَى ما هم فيه ولم ينقطعْ، أو ما سيفعلونَه بعدُ ولم يقعْ؛ جرَى مَجْرَى الفعلِ المضارع في عملِه وتقديرِه.

و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ في موضع الحالِ من ضميرِ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾[3]، والاتّكاءُ: جِلسةُ الرّاحة والتّرفِ؛ فالآيةُ تصفُ حالَ التّرف عند أهل الجنّةِ، فهم أهلُ السّعادة والتّرفِ والخلودِ والعنايةِ بنعيم اللّه عليهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

بَلاغةُ الكنايةِ بذِكْرِ الاتّكاءِ:

بيانُ أعظمِ ما يصلُه إنسانٌ منَ التّرفِ والنّعيمِ

خُصّ الاتّكاءُ بالذِّكر لأنّه هيئةُ المُنعَّمين والملوكِ على أسِرَّتِهم[1]، وهل أنعَمُ وأكرمُ ممّن حازوا المكانةَ العاليةَ عند ربِّهم فرحين بما آتاهم وأكرمَهم؟ فقدِ استحقّ هؤلاء كلَّ أنواعِ التّنعيم منَ الله سبحانه، وقد أجزلَ الله لهمُ العطاءَ والثّوابَ؛ فذكرَ الاتِّكاءَ كنايةً عنِ التَّرف والنَّعيم.

وجْهُ ترتيبِ النِّعَم مع اختلافِ الصّيغِ:

الجنَّةُ مراتبُ عاليةٌ ونعيمُها درجاتٌ مُتدانيةٌ

في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ رتّبَ النِّعَمَ تحليةً وملبسًا واتّكاءً بحسبِ هذا التّسلسلِ؛ إذ قدّمَ ذِكْرَ التّحليةِ على اللُّبس؛ لأنّ النّظمَ في صددِ وصْفِ الجنّاتِ؛ فكانت تحليتُهم عنصرًا رئيسًا لمَن دخلَ هذه الجنانَ، فقال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ وكأنّ التّحليةَ صفةٌ لازمةٌ في هذه الجِنان، ثمّ انتقل إلى اللّباس باعتبارِ أنّه صفةُ أهلِ الجنّاتِ، ثمّ انتقلَ إلى الاتّكاء على الأرائكِ وأخّرَه؛ لأنّه جمعَ بين صفتَيِ الجنّاتِ وأهلِها ليصفَ جلوسَهم وتفاخُرَهم بأنفسِهم.

وبُنيَ فعلُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ للمفعول وفعلُ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ للفاعل؛ إذْ أضاف اللُّبسَ إليهم لاحتمال أن يكونَ اللِّبسَ إشارةً إلى ما استوجبوه بعملِهم، وأن يكونَ الحُليُّ إشارةً إلى ما تفضَّل الله عليهم ابتداءً من زوائد الكرم[2]، فمَن دخل الجنّةَ حُلّيَ فيها كوسامٍ يستحقُّه، وجاء الاتّكاءُ باسمِ الفاعلِ لبيانِ أنَّه حركةٌ إراديَّةٌ تنشأُ بعدَ التَّنعُّمِ بنعيمِ أهلِ الجنَّةِ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في ترتيبِ ذِكْرِ النِّعم:

قُدِّم ذِكرُ الحليّ على اللّباس هنا؛ لأنّ ذلك وقَع صفةً للجنّات

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

الكلامُ في سورة الإنسانِ جرَى على أصحاب الجنّةِ لا على الجنّةِ نفسِها

ابتداءً، فقال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾، وكانت مظاهرُ الحُليّ أبهجَ للجنّات، فقُدّم ذِكْرُ الحُليِّ وأُخِّر اللّباس؛ لأنّ اللّباسَ أشدُّ اتّصالًا بأصحاب الجنّةِ لا بمظاهر الجنّةِ، والاتّكاءُ صفةٌ ومظهرٌ مشتركٌ للجنّات وأهلِها، ولكنّه عكسُ ذلك في سورة الإنسان في قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الإنسان: 13] وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21]؛ لأنّ الكلامَ في سورة الإنسان جرَى على صفات أصحابِ الجنّة لا على الجنّة نفسِها[1]؛ ولهذا فقد خُتِمت بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: 22].

تَوجيهُ المتشابِه اللَّفظيِّ في ذِكْرِ القيْدِ ﴿فِيهَا﴾:

الاكتفاءُ بذِكْرِ القيْدِ في الجملةِ الأولى عن تَكرارِه في الثّانيةِ

يُلاحظُ أنَّ قيدَ ﴿فِيهَا﴾ ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ بينما حُذف بعدَ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾؛ وسرُّ ذلك أنّ التَّحليةَ تكونُ كالوسام الذي يُحلَّى به أهلُ الجنّة حالَ دخولِهم فيها، فهو أوّلُ ما يوضعُ على أجسادِهم لحظةَ دخولِها، ولذلك بُنِي الفعلُ للمفعول أيضًا، فتكونُ التّحليةُ عائدةً على الجنّاتِ، أمّا قولُه: ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾؛ فاللّباسُ عائدٌ على الأفراد وممّا يختارونَه وينتقونَه هم، ولذا فلا داعيَ للنَّصِّ عليه، أو أن يكونَ ذلك من قَبيل الاكتفاءِ بذِكْرِ القَيْدِ في الجملة الأولى.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾:

كنايةٌ عنِ الرِّفعة والمكانةِ، أو تشبيهٌ بأسيادِ المجالسِ

معنَى الاستعلاء في فعلِ الاتّكاءِ أنّهم سادةُ المجالس؛ فلا يسودُ عليهم أحدٌ منَ الخَلْق، والاستعلاءُ على الأرائك؛ أي: الجلوسُ عليها، فمعنى الاستعلاء هنا حقيقيٌّ أُريد به معنىً ثانٍ مَجازيًّا، وهو الهيمنةُ على المجلس والحديثِ والرّأي، من حيث إنّهم لا يَسمعون فيها لغوًا ولا كِذّابًا، فحيث يتّكئون فيها فهُم سادةُ المجلس وأربابُ الحديث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

فيه، وذلك لا باعتبارِ وجودِ سيادةِ بعضِ أهلِ الجنَّةِ على بعض أهلِها الآخَرين، بل بتشبيه حالِهم كلِّها بحالِ الأسياد في الدُّنيا، وفي ذلك كنايةٌ عن ترفيعِهم وعُلوِّ شأنِهم ومكانتِهم.

معنَى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾:

أرائـكُ الجنّةِ تتّصفُ بأعلى درجاتِ الكمالِ والرّاحةِ

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمعُ (أريكة) وهي سريرٌ في حَجَلَة؛ أمّا للسّريرِ وحدَه فلا يُسمَّى أريكةً[1]، وتعريفُ الأرائك لفائدةِ بيانِ ما لها، ففي التّعريفش منض الدّلالة على الكمالش ما ليس في التّنكير، فهي الأرائكُ الكاملةُ في هذا الوصفِ، و(أل) هنا تُفيدُ الاستغراقَ؛ فهي تستغرقُ كلَّ الأرائك في الجنَّةِ، وهي تستوعبُ جميعَ درجاتِ الجنَّة، وأنَّ لكلِّ أهلِ درجةَ أرائكَ خاصَّةً بهم، فتلك الأرائكُ التي هي مظهرٌ من مظاهر البذخِ والتّنعّم، هي هنا على أعلى درجاتِ ذلك الوصفِ، ثمّ ما تُقدّمُه منَ الرّاحة التّامّة للمُتّكئين عليها.

عِلّةُ فصلِ جُملةِ ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾:

استئنافُ المدحِ من النَّعيمِ المُعجَّلِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ عن سابقتِها؛ لأنَّها جملةٌ استئنافيَّةٌ، فبعدَ أن ذَكَرَ ما لأهل الجنَّةِ من نعيمٍ، استأنفَ مدحًا لهم، كما سبق بيانُه في جملة أهلِ النّار.

نكتةُ ذِكْرِ ﴿ٱلثَّوَابُ﴾ دونَ (الأجر) مع تقدُّمِه:

تقدَّمَ ذِكْرُ الأجرِ في قوله تعالى: ﴿أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ وذلك لتفسيرِ الأجر بأنَّه ثوابٌ؛ وهذا أبلغُ؛ إذِ استحقُّوا الأجرَ؛ فنالوا الثَّوابَ عليه.

نُكتةُ حذفِ المخصوصِ بالمدحِ:

تشويقُ النَّفسِ المؤمنةِ نعمةٌ من نِعمِ القرآنِ على أهلِه

قولُهُ تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ استئنافُ مدحٍ، ومخصوصٌ بالمدح محذوفٌ لدلالةِ ما تقدَّم عليه؛ والتّقديرُ: (نعم الثَّواب ما وُعدوا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

به)، أو: (نعمَ الثّوابُ الجنّاتُ الموصوفةُ)[1]، وحذْفُ المخصوص بالمدح أبلغُ من ذِكْره، وذلك لإطلاق المدحِ في الثّواب، فكأنَّه لا أنعمُ منَ الثّواب الذي يُثابوه، ولتذهبَ النَّفسُ فيه مذاهبَ الجمال والجلال.

بلاغةُ التّرديدِ في لفْظِ ﴿مُرْتَفَقًا﴾:

ارتفاقُ أهلِ الجنّةِ حقيقةٌ وارتفاقُ أهلِ النّارِ مَجازٌ

وفي القطعةِ القرآنيةِ ما يُسمّيه البلاغيّون بـ(التّرديد)[2]، فـ (المرتفق) في قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ لأهل الجنَّةِ مُستعمَلٌ في معناه الحقيقيِّ، بخلاف مقابِلِهِ المُتقدِّمِ في قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ لأهلِ النّار[3]، فهو مُستعمَلٌ في معناه المجازيِّ، وهو التَّهكّمُ بأهلِ النّار، وهذا قريبٌ منَ الطِّباق المَعنويِّ في المآل.

فنُّ الاستتْباعِ في الآية:

تَوالي المدْحِ لأهلِ الجنّة، وتَوالي الذَّمِّ لأهلِ النّارِ

الاستتْباعُ: هو المدحُ بشيءٍ على وجهٍ يَستتبعُ مَدْحًا آخرَ[4]، أو: هو الوصْفُ بشيءٍ على وجهٍ يَستتبعُ الوصفَ بشيءٍ آخرَ، مدحًا أو ذمًّا[5]، وهذا ظاهرٌ في الآيتيْن الكريمتَيْن حيث استتبعَ مدْحًا في الوصْف تلو المدح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

(2) فنُّ التَّرديد أحد فنون علم البديع، ويعتمد في أساسه التكرار اللفظي، وهو أن يُعلِّقَ المُتكلِّم لفظةً من الكلام بمعنًى، ثم يردّها بعينها ويُعلّقها بمعنًى آخر، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 44.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

(4) السَّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 428.

(5) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 317.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحريرُ والسُّندسُ والإستبرقُ:

السّندسُ: نمارقُ منَ الحرير[1]؛ وهو رقيقُ الدّيباج، وفي تفسير الإستبرق: إنّه غليظُ الدّيباج[2]، وأصلُ كلمتيْ سندسٍ وإستبرقٍ فارسيٌّ، فالسُّندسُ يُلبسُ على الجسد مباشرةً ويُلامسُه، بينما الإستبرقُ يكونُ لبسُه فوقَ الثّياب كلباسٍ خارجيٍّ يحوي النّقشَ والتّطريزَ والزّينةَ، والحريرُ اسمٌ جامعٌ لهما.

السُّندسُ رقيقُ الحرير، والإستبرقُ غليظُه، والحريرُ اسمٌ عليهما

(1) الكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 519.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 13/ 106.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»